

## التعليم قاطرة التقدم

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

=====

بصفة عامة ومن باب الإنصاف فإن وزارة التربية والتعليم بذلت على إمتداد عقدين من الزمن جهوداً خارقة لا جدال فيها لتطوير التعليم . وتعاقب وزراء مخلصون بذلوا جهوداً مخصصة لإصلاح الخلل . ولكن لم يشعر المواطن العادي بهذا الجهد . ولم يسلط الإعلام الضوء على الجوانب الإيجابية التي تحققت وبقيت الجوانب السلبية سيده الموقف . ومع إزدياد أعداد الطلاب تراجع المستوى أكثر وأكثر واشتد التنافس على دخول الجامعة بصراوة . تحضرني واقعة إذ جاء إلى مصر من عدة سنوات نائب رئيس شركة عالمية في صناعة الكمبيوتر وكان يبحث عن إمكانية إقامة مصانع للمشغل الدقيق Micro processor وهو ( قلب الكمبيوتر ) في إحدى دول العالم الثالث . وحين تكلمت معه شرحت له المزايا العديدة التي توفرها الدولة للمستثمرين وخاصة من حيث سعر الأرض والطاقة والنقل والإعفاءات الضريبية والجمركية . فقال لي: " كل هذا لا يهم فكل الدول تفعل ذلك وكل الدول تتنافس على جذب الشركات العالمية العملاقة ولكن ما أبحث عنه هو جودة التعليم فإني أبحث عن دولة تكون القوة العاملة فيها مدربة وجاهزة ولا تحتاج لوقت طويل للتدريب والاستيعاب . أني أريد أن أرى نظام التعليم في بلدكم " . وزار الرجل عدة مدارس وجامعات في مصر وذهب ولم يعد . وعلمت فيما بعد أن المصنع أقيم في إسرائيل وآخر في جواتيمالا . أن الأوان أن ننظر إلى العملية التعليمية بمنظور هندسي . نريد تحسين المنتج . ولكن المنتج في العملية التعليمية هو منتج بشري وليس سلعة فهو أصعب ما يكون لتكوينه وتشكيله فهو إنسان يملك القدرة على الإبداع إذا أحسن توجيهه , وبصبح طاقة معطلة مدمرة إذا أهمل وترك للضياع . المنظور الهندسي يحتم علينا أن نتعرف أولاً على المشكلة Problem Definition . والمشكلة هنا هي إنخفاض جودة المنتج . ومن ثم نحدد الأسباب ثم نحدد معالم المنتج الجيد والهدف منه ثم نبحث في كيفية الوصول إلى الهدف . المطلوب إنسان منتج مبدع يفكر ويوجد باستمرار ويتنافس مع غيره ويضيف ويصنع من المادة الخام شيئاً مفيداً . ويستطيع أن يكون له فكر ورؤية Vision وخواطر إلهام Insight ليستفيد من خبراته لحل مشكلات جديدة يطأ أرضاً لم يطأها أحد غيره من قبل . يقتحم ولا يهاب يجرب ولا يخاف يخاطر ولا يبالي شغوف بالمعرفة محب للمغامرة طموح ومثابر صبور ومتمقن يستمتع بالعناء ويفرح بالانتصار . هذه المواصفات العظيمة لا تأتي من فراغ بل لابد لها من إعداد ولابد من بذل جهد هائل للوصول إلى هذا المستوى من الأداء . هذا هو التحدي الحقيقي الذي تواجهه

وزارة التربية والتعليم الآن . فإن كان إنتشار عدد المدارس في فترة ما يفوق كل ما بنى من مدارس من قبل فقد جاء الوقت للإنتشار الرأسي لتعميق مفاهيم التعلم النشط والبحث الذاتي . ولأن وزير التربية والتعليم الحالي هو أستاذ في الهندسة ونظم المعلوماتية تحديداً فإنه يدرك تماماً أن التحدي الذي نواجهه هو نقل العملية التعليمية من عملية تلقين معلومات إلى عملية البحث عن مفاتيح المعرفة والاستفادة من الخبرات واستنارة الاستنتاج والاستنباط كمدخل حقيقي للتعلم الإيجابي. وكما قال سكرنر : فإن التعلم هو ما بقى في الذهن بعد أن تنسى الذاكرة التفاصيل " . هذا هو التحدي الذي تواجهه مصر كلها لتنتقل من حال إلى حال . وهذا ما بدأت وزارة التربية والتعليم في التعامل معه بأسلوب جديد . ومن أهم اتجاهات الوزارة الآن التركيز على التعلم المبني على الأنشطة Activity Based Education بدلا من التعليم المبني على تكديس المعلومات Knowledge Based Education فما قيمة المعلومات إذا لم تكن تعنى شيئا على المستوى الشخصي ولم ترتبط بأى ممارسة أو خبرة ذاتية . فالمعلومة المجردة بعيدة عن الملكية الذاتية وتصبح جزءا من الشخصية حين ترتبط بجهد البحث عنها وفهمها بالممارسة والافتتاح . ولاشك أن بداية هذا الأسلوب فى السنوات الثلاث الأولى للتعليم الابتدائى هو خطوة على الطريق الصحيح لإنقاذ التعليم فى مصر .